أزمة التعدد اللغوي بدول المغرب العربي:
المغرب نموذجا

الباحث اعمر بالي
طالب دكتوراه متخصص في قضايا البلاغة والمصطلح
مختبر الأدب والبناء الحضاري، تكوين علوم اللغة: مفاهيم وقضايا
أستاذ اللغة العربية بالسلك الإعدادي
المغرب

مقدمة

التعدد اللغوي ظاهرة إنسانية لا يسلم منها أي وضع لغوي في أي بلد، وقد أصبح العالم المعاصر يشهد تغيرات كثيرة خاصة مع اكتساح العولمة لهذا العالم، والواقع أن هذه العولمة قد فتحت أبوابا كثيرة تتعلق بالاقتصاد والنمو الديموغرافي...ولكنها في مقابل ذلك أحدثت اضطرابا خاصة فيما يتعلق باللغة في العالم العربي، بعدما اكتسحت اللغات الأجنبية مجال الإعلام والاتصال والإدارة. وانتشار هذه اللغات الأجنبية بالعالم العربي راجع إلى الاحتلال الأوربي لبعض هذه الدول كدول المغرب والجزائر وتونس التي فُرِضَت عليها هذه اللغات حتى أصبحت جزءا من كيانها وثقافتها.

ويعني هذا أن الواقع اللغوي الاجتماعي في دول المغرب العربي أصبح يعرف تحولات دائبة من ازدواج للغات ومزاحمة اللهجات المحلية للغة الرسمية، ويعني ذلك ضمنيا أن الاعتراف بالتعددية اللغوية اعتراف بتعدد الثقافة والدين والعرف، ولعل ذلك هو سبب نشوب الصراعات والنزاعات داخل المجتمع الواحد، لأن اللغة هي الوسيلة التي تربط الفرد بمجتمعه، ولولاها ما كان للإنسان أن يتعايش مع هذا المجتمع.

وتأسيسا على ذلك نسعى في هذه الورقة إلى البحث في موضوع: **"أزمة التعدد اللغوي بدول المغرب العربي: المغرب نموذجا"**، ولما كان المغرب دولة متعددة اللغات، بات يعيش ثقافات متنوعة، وبالتالي الاعتراف بالتعددية اللغوية والثقافية والدينية والعرفية والإيديولوجية. ولعل هذا الاختلاف هو الذي أعطى للبحث قيمة جعلته يسفر عن جملة إشكالات مثل:

***ما المقصود بالتعدد اللغوي؟ وما أسبابه؟ وما هي تجليات التعدد اللغوي بالمغرب؟**

*** هل للتعدد اللغوي دور في تحديد الهوية الثقافية لدى بلدنا المغرب؟**

***ما هو واقع اللغة العربية وآفاقها في ظل أزمة التعدد اللغوي بالمغرب؟**

*** هل هناك سبل لمعالجة هذا التعدد أم لا؟**

إذا استطعنا الإجابة عن إشكالات هذا الوضع اللغوي بالمغرب، فنكون قد لامسنا جزءا من الافتراض الآتي:

رغم اعتماد العربية كلغة رسمية في مجالات كثيرة بالمغرب، إلا أنها ما زالت تواجه صعوبات ومضايقات من قبل العاميات واللغات الأجنبية الأخرى.

أما عن المنهج المعتمد فوصفي تحليلي تاريخي، نظرا لما تقتضيه طبيعة الدراسة. وتكمن أهمية هذا الموضوع في تعميق البحث في مجال السياسات اللغوية ودورها في تحديد هوية الإنسان.

وهكذا كان سعينا في هذا البحث قائما على إجمال الموضوع في ثلاثة مباحث رئيسة هي:

- **المبحث الأول: أسباب التعدد اللغوي بالمغرب وتجلياته:** وقد بينت خلاله أسبابا تاريخية مثل تعاقب الدول على المغرب، وأسبابا تجارية، وأخرى ناتجة عن الهجرة. وكذا اختلاط العربية بالأمازيغية وما تفرع عنهما من لهجات، إضافة إلى الاستعمار الذي كانت بصمته اللغوية والثقافية واضحة المعالم في معظم المجالات.
- **المبحث الثاني: واقع اللغة العربية بالمغرب وآفاقها في ظل التعدد اللغوي:** وقد ركزت فيه على أثر اللغة الأجنبية على الإعلام والإدارة ولاقتصاد والسياسة الخارجية...وكيف تم اعتمادها كلغة ثانية في بعض المستويات المتقدمة في مجال التعليم، مما يؤثر دون ريب من مردودية المتعلمين. وبينت من خلاله أيضا ذلك الإسهام الضئيل للغة العربية، إذ جُعِلت لغة الشؤون الدينية، والخطابات الرسمية، وإسهامها شبه المنعدم في مجال الاقتصاد والإعلام و....
- **المبحث الثالث: سبل معالجة أزمة التعدد اللغوي وحماية اللغة العربية بالمغرب:** اقترحت في هذا المبحث بعض سبل معالجة إشكالية التعدد اللغوي، وحماية اللغة العربية من أيدي الغاصبين، والإشادة ببعض المبادرات الجماعية والفردية التي تسعى إلى الدفاع عن هذه اللغة ورد الاعتبار إليها، في وقت يسعى فيه آخرون إلى القضاء عليها لصالح المستعمر الفرنسي.

المبحث الأول: أسباب التعدد اللغوي بالمغرب وتجلياته

لا يرتبط التعدد اللغوي في المغرب بحقبة زمنية بذاتها أو بجهة جغرافية معينة، بل هو بناء تاريخي جغرافي لساني، بل إنه أيضا تراكم اجتماعي وسياسي، لكن الذي يطغى على جانب السياسة اللغوية بالمغرب ذلك الجانب التاريخي نظرا لتعاقب الحضارات عليه شمالا جنوبا وشرقا غربا، وما حملته من تغيرات على مستوى اللسان، "وقد شكلت التجارة من جهة والهجرات من جهة ثانية والاستيطان من جهة ثالثة مؤشرات قوية على تعددية لغوية في المغرب منذ القدم"[1]

أما قبل الاستعمار فكانت العربية والأمازيغية تهيمنان على الوضع اللغوي بالمغرب، كل منطقة بحسب خصائصها وحاجياتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية: " حتى أنه عندما تلاقت القبائل البربرية والعربية مع بعضها البعض وتوحدت لغويا، فأنتجت لنا لغة أخرى قريبة من العربية ما هي إلا اختلاط بين الفصحى والأمازيغية تسمى العامية المغربية أو (اللغة الدارجة) لها خصائص تميزها على اللغة الفصحى، من هنا عوض أن نحصل على لغتين أصبح لنا ثلاث لغات مختلفة نسبيا عن بعضها البعض، فلا درجة تشبه الأمازيغية ولا هذه الأخيرة تشبه العربية".[2]

وكان هذا أول أسباب التعدد اللغوي بالمغرب، أي أن اختلاط العربية بالأمازيغية أفرز لنا لغة ثالثة.

وظل هذا التعدد قائما حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين سيغطي الاستعمار الفرنسي وسط المغرب وشرقه وبعض مناطقه الصحراوية، في الوقت الذي سيطر المستعمر الإسباني على منطقة الشمال ومجمل أراضي الصحراء المغربية.[3]

إن الاستعمار هو الذي جعل من المغرب بلدا مشتتا لغويا وثقافيا، لأنه جاء محملا بلغة وثقافة جديدتين، لكن هناك مفهوم آخر ارتبط بمفهومي اللغة والثقافة هو مفهوم الهوية. وقد كثر الكلام عن هذا المفهوم في مختلف العلوم الإنسانية لعلاقته الإلزامية باللغة والثقافة.

يقول الدكتور محمد إلياس بلكا ومحمد حراز: " اللغة وعاء للفكر وأداة للتفكير، ووسيلة للتفاهم والتواصل الاجتماعي، وعنوان الهوية للفرد والمجتمع، وترتبط اللغة بالثقافة والقيم الحضارية".[4]

فاللغة من هذا المنظور عنوان الفرد والمجتمع.

وبما أن الهوية المغربية تمثلها الأمازيغية والعربية، ودخل الاستعمار بلغة وثقافة جديدتين، فسيعرف المغرب مرحلة جديدة تتعدد فيها اللغات، إذ يجد الفرد نفسه أمام العربية والأمازيغية والدارجة من جهة، والفرنسية والإسبانية من جهة ثانية، ثم الإنجليزية التي ستدخل إلى المغرب عن طريق مدينة طنجة التي أصبحت منطقة دولية غير خاضعة للسيادة الفرنسية أو الإسبانية، والتي ستفرض قوتها بعد الاستقلال كلغة اقتصادية وعالمية.[5]

وعلى هذا سيصبح المتكلم بلغة المستعمر ولغته الأم ثنائي اللغة، والأمر نفسه بالنسبة للذي يتكلم العربية والأمازيغية، أما الذي يضيف إليهما الدارجة فهو متعدد اللغات...

أقر دستور 2011 أن العربية والأمازيغية لغتان رسميتان للبلاد، لكن تتفرع عنهما لهجات، إذ نجد لهجة الشمال والجنوب والشرق والغرب نابعة عن العربية، في الوقت الذي تتفرع لهجات محلية عن الأمازيغية، والتي تتمثل في: (تريفيت – تشلحيت – تسوسيت)، إضافة إلى اللهجة الحسانية بجنوب المغرب. [6]

ولعل هذا سبب آخر من أسباب التعدد اللغوي واللهجي بالمغرب، خاصة وأن زحف الاستعمار نحو المدن والقرى كان له الأثر البليغ في هذه اللغات، منه إلى الثقافات والهويات والعادات والتقاليد.

علاوة على ذلك، فإن مسألة التعدد اللغوي وعدمه مرتبطة بالتنمية أيضا؛ لأن جل الباحثين خلصوا إلى أنه: "كلما اتجهنا صوب المناطق الأكثر نموا وتطورا وجدنا أن تلك المناطق تتداول أقل عدد من اللغات، وكلما اتجهنا صوب المناطق الأكثر فقرا وتخلفا، لاحظنا أن عدد اللغات المتداول يتضاعف بشكل مذهل".[7]

نسجل في هذا السياق أن هذه اللغات رغم اختلافها وتفاوتها القائم على مستوى الكفاءة والاستعمال، فهي تتعايش فيما بينها وتفي بالأغراض المنشودة.

المبحث الثاني: واقع اللغة العربية بالمغرب وآفاقها في ظل التعدد اللغوي

تعيش اللغة العربية اليوم أزمة حقيقية بسبب الاستعمار الفرنسي الذي حاول القضاء عليها وترسيخ مبادئ لغته وثقافته، وبعد الاستقلال خلّف وراءه لوبيات تعمل لصالحه من خلال الدفاع عن الفرنكوفونية على حساب العربية، في الوقت الذي دافع فيه آخرون عن قدسية العربية وطابعها الإسلامي، وتتجلى قوتها في عدد الناطقين بها، لأنها تعد لغة رسمية لاثنين وعشرين دولة، وتمتد رسميتها إلى مؤسسات دولية وإقليمية.[8]

نحن أمام حرب متواصلة على هذه اللغة ومستقبلها، ودليل ذلك أن وضعها بالمغرب يتحدد في كونها لغة الشؤون الدينية والتعليم، وبشكل محتشم في الإدارة والإعلام. أما الفرنسية فهي لغة الاقتصاد والإدارة والتعليم والإعلام والسياسة الخارجية...وتبقى الإسبانية من حين لآخر في بعض مدن شمال المغرب، وتعتبر الأمازيغية والعامية لغة التواصل اليومي لا غير.

أصبح الرأي المغربي العام يواجه جملة من الإشكالات في اختيار لغة التدريس، خاصة مع إدراج لغات أجنبية أخرى في السنوات المبكرة للدراسة، وهو ما سيؤثر سلبا على تعلم العربية واكتسابها، بل وقد يتخرج التلميذ وهو لا يحسن أبجديات دينه ولغته وثقافته، وقد صرح بذلك وزير التربية والتعليم السابق رشيد بلمختار حين قال: " إن الكثير من التلاميذ في السنة الثالثة إعدادي لا يتقنون القراءة والكتابة، كما أنه بعد تسع سنوات في المدرسة، فإن طفلا من أصل ثمانية أطفال لا يتقن العربية".[9]

إن إدراج الفرنسية والإنجليزية إلى جانب العربية في بداية التعليم الأولي العمومي، وفي الروض بالنسبة للتعليم الخصوصي سيؤثر تلقائيا على المتلقي ونمو تفكيره، ويؤكد هذا الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري بقوله: "يؤثر دون شك على نموه اللغوي والمعرفي والفكري، ويخلق له اضطرابات نفسية وهو في الأطوار الأولى من النمو...وهذا الاضطراب في المراحل الأولى من نمو الاكتساب له نتائج سلبية أكيدة على نموه اللغوي والمجتمعي فيما بعد، وموقفه من اللغات".[10]

لا تنحصر العواقب الناتجة عن هذا التعدد اللغوي في نمو الطفل أو المجتمع فحسب، وإنما تؤثر سلبا على اللغة الأم وتماسك المجتمع ووحدته أيضا.

وهناك من يرى أن التعدد اللغوي في التعليم وإشكالية اختيار لغة التدريس ليس إشكالا، وإنما هو مشكل وضع المنهاج. يقول الأستاذ الحبيب آيت صالح بـ: "...أن الإشكال لم يكن مرتبطا باللغة بقدر ما هو مرتبط بالمنهاج والمحتوى، ذلك أن وجود محتوى عقلاني غني يمكن أن يُنقل بأية لغة ممكنة، وفي غياب هذا المحتوى فإن استعمال أبسط اللغات لن يف بالغرض".[11]

ما نسجله على هذا الكلام أن المنهاج لن يكتسب جودته إلا إذا كان باللغة العربية، لأن اللغة حاملة لثقافة وهوية. وفي التخلي عن اللغات الأجنبية الأخرى فوائد نذكر منها:

*الاقتصاد في مالية التعليم وميزانيته.

*توجيه أعلى نسبة من الممارسة الثقافية لذهن المتعلمين.

* الولوج التدريجي إلى اللغة العربية في جميع حقول العلم والمعرفة، ومجالات العمل.

* التماسك الاجتماعي والمحافظة على الأصالة وسلامة اللسان من الرطانة.

أما في الإعلام والإدارات والاقتصاد ومسائل السياسة الخارجية، فكلها تعتمد اللغة الفرنسية كما أسلفنا القول.

ومن الملاحظ أيضا أن هناك جهات تدعو إلى اعتماد العامية كلغة للتدريس بعد تسجيل انتشار واسع لهذه العاميات في مختلف ربوع الوطن من جهة، ولاعتمادهم جملة من الاعتبارات من جهة ثانية، ونذكر من هذه الاعتبارات ما يلي:

*اعتبار العامية المغربية لغة قائمة بذاتها ومستقلة عن الفصحى.

*ادعاء أن اللغة العربية الفصحى لغة وافدة إلى المغرب.

*شبهة اختلاف الخط المغربي عن الخط المشرقي.[12]

والواقع أن اللغة أو اللهجة العامية سبيل للفرنكوفونية التي تحارب الفصحى، لأن فرنسا قد كونت نخبا من الفرنكفونيين تدافع عن مصالحها اللغوية والقومية؛0 لأنه رغم إقرار دستور 2011 بشرعية اللغتين العربية والأمازيغية، ما زالت هناك تبعية عمياء للفرنسية في مراكز القرار ومدارس البعثات الثقافية والمدارس الخصوصية.

المبحث الثالث: سبل معالجة أزمة التعدد اللغوي وحماية اللغة العربية بالمغرب

للحد نسبيا من همجية اللغات الأجنبية، ورد الاعتبار للغة العربية لا بد من اقتراح مجموعة من السبل أهمها:

*الدعوة إلى إحداث أكاديمية تعنى بشؤون اللغة العربية وتوحيد معجمها وتنظيم الكلمات والعبارات الدخيلة عليها تنظيما يليق بمستعمليها.

*تحبيب اللغة العربية وتعليمها لأطفالنا المغاربة واجب ومسؤولية وأمانة؛ لأنها أساس مروءتهم، وكذا التدرج في تمكينهم من قواعدها وأساليبها في جميع مراحل التعليم الأولي والابتدائي والإعدادي والثانوي، ثم تشجيعهم على قراءة القصص المكتوبة بالعربية الفصحى، لأن ذلك يدع فيهم حب هذه اللغة والفضول المستمر لتعلمها.

*الحرص على كتابة اللوحات الإشهارية الموجودة بالأماكن العمومية أو على واجهات المحلات التجارية باللغة العربية.

* الدعوة إلى استعمال العربية في الوصلات الإشهارية، والنشرات الإخبارية، واللقاءات العلمية المرئية أو المسموعة، وكذا توجيه مؤلفي المسرحيات والمسلسلات لاستخدام لغة عربية بسيطة، ثم عرضها في شاشات التلفزة.

*اعتمادها لغة للإدارة والاقتصاد والعلوم سيكون له أثر بالغ ومستوى راقي للشعب المغربي.

* توجيه المدرسين لدراسة اللغة العربية واستعمالها في تدريس معظم المواد وتجنب العامية ما أمكن.

*الالتزام بكتابة حروف العربية الفصحى، لأن معظم شبابنا اليوم يستخدم وسائل التواصل الاجتماعي بطريقة خاطئة، إذ استُحْدِثت لغة جديدة تعرف بلغة الشات، وهي استخدام حروف وأرقام لاتينية للتعبير عن كلمات وعبارات دارجة (عامية).

كانت تلكم بعض سبل تجاوز ضعف استعمال اللغة العربية في بلادنا، لكنه رغم كل التضييقات والصعوبات التي تعترض اللغة العربية، نجد بعضا من المبادرات الجماعية والفردية التي تسعى إلى الدفاع عن هذه اللغة ورد الاعتبار إليها. فهذا " **الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية**" الذي يشرف عليه الدكتور فؤاد بوعلي وآخرون يهدف إلى:

*التنسيق بين مختلف الفاعلين الغيورين على دور العربية في ترسيخ الانتماء الحضاري والديني للشعب المغربي، والإيمان بقدرة العربية على تحقيق مجتمع المعرفة.

*دعم كل الجهود الرامية لتنمية اللغة العربية وتطويرها من الداخل وتصحيح مسارها من الخارج، وكذا محاولة الحد من الاختلالات التي تعوق تنميتها في المجالات العلمية والتقنية والمهنية.[13]

ولا تفوتنا فرصة ذكر بعض الجهود الفردية الجسيمة التي ترمي إلى خدمة اللغة العربية والحفاظ عليها في المغرب، ومن هؤلاء نذكر: الدكتور عبد القدر الفاسي الفهري، وعبد العلي الودغيري، ومحمد عابد الجابري، والمهدي المنجرة، وفؤاد بوعلي وغيرهم كثير.

حتى وإن كثر الدفاع عن اللغة العربية باعتبارها لغة رسمية وقوية، لم يكن في يوم من الأيام بينها وبين اللغة الرسمية الثانية للبلاد وهي الأمازيغية أي نزاع، و: " أي صراع بين العربية والأمازيغية وراءه لوبي فرنكفوني غايته التمكين للفرنسية على حساب اللغتين الوطنيتين".[14]

ويعد هذا من الأسباب التي دفعت بعض الفرنكفونيين إلى الدفاع عن الأمازيغية لتنهض أمام العربية، لكن ليس حبا فيها، وإنما للتضييق على العربية، والحقيقة أن العربية والأمازيغية لغتان شقيقتان: " تشتركان في الأصول العريقة البعيدة في التاريخ وفي المهد المحتد منطلقا ومستقرا، وفي أساليب التطور الطبيعي للغات تبعا لحركيتها وكمونها".[15]

من خلال هذا وذاك، نستنتج أنه لم يكن في يوم من الأيام فرق بين العربية والأمازيغية، حتى دخل المستعمر الفرنسي الذي حاول تفكيك لحمة هذا المجتمع المغربي حين أصدر الظهير البربري سنة 1930، لكنه سرعان ما تفاجأ أن المغرب فيه:" أمازيغ وعرب تكلموا كلهم لغة واحدة سنة 1930... وكانوا أقدر على استعمال لغة البيان التي يتألف كلمها من حب الوطن والتربة، والأصول المشتركة الموثقة بالتاريخ والدين ولحمة الأنساب المندمجة المتوحدة".[16]

خاتمة

من خلال ما سبق من معطيات هذا البحث المتواضع حول سياسة التعدد اللغوي بالمغرب، وما يتعلق به من أسباب وظروف ونتائج وآفاق، انتهينا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- ✓ أسباب التعدد اللغوي بالمغرب تعود بالدرجة الأولى إلى الاستعمار، وتداخل العربية بالأمازيغية الذي أنتج
- ✓ لغة ثالثة تعرف بالعامية أو الدارجة، في وقت تميزت فيه كل جهة بلهجة خاصة.
- ✓ لم يكن في يوم من الأيام أي صراع بين العربية والأمازيغية، لأنهما تكونان الهوية المغربية وأبعادها الوطنية في آن واحد، وإنما كان ذلك ناتج عن بعض الفرنكفونيين الذين يسعون إلى تخريب هذه اللحمة لا غير.
- ✓ تتعرض اللغة العربية لتضييقات كثيرة في مجال التعليم والإعلام و...، خاصة من قبل اللغات الأجنبية والعامية الدارجة، نظرا لإشكالية اختيار لغة التدريس.
- ✓ اقتراح بعض سبل معالجة إشكالية التعدد اللغوي، وحماية اللغة العربية من أيدي الغاصبين، والإشادة ببعض المبادرات الجماعية والفردية التي تسعى إلى الدفاع عن هذه اللغة ورد الاعتبار إليها، في وقت يسعى فيه آخرون إلى القضاء عليها لصالح المستعمر الفرنسي.

الهوامش:

1محمد كركيش، مقال حول مسألة التعدد اللغوي بالمغرب: مقاربة سوسيو تاريخية، الحوار المتمدن، العدد 4432، 23-04- 2014. 08:40

[2] نفسه

[3] نفسه

[4] إلياس بلكا ومحمد حراز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي: المغرب نموذجا، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى 2014 ص 21

[5] محمد كركيش، حول مسألة التعدد اللغوي بالمغرب: مقاربة سوسيو تاريخية

[6] إدريس شريفي علوي، مقال التعدد اللغوي واللهجي بالمغرب وإشكالات الهوية، 28-11-2020

[7] جمال والزين، التعدد اللغوي بالمغرب وسؤال التنمية، مارس 2020، ص 10

[8] إلياس بلكا ومحمد حراز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي: المغرب نموذجا،

[9] منتدى دولي، شتنبر 2014، ينظر مجلة المناضل

[10] عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة، أسئلة متراكمة، ط2، منشورات زاوية، الرباط 2007 ص 116

[11] الحبيب آيت صالح، حرب بين اللغات بالمغرب... من ينتصر؟ الجزيرة، 26- 09 2018

[12] محمد شفيق، الدارجة المغربية، الرباط ص 72

[13] الغالي بنهشوم، مقال: راهن اللغة العربية بالمغرب بين الدسترة وتعقيد الإجراءات، 02 أبريل 2020

[14] جمال والزين، التعدد اللغوي بالمغرب وسؤال التنمية ص 10

[15] محمد شحلان، العربية والأمازيغية، بديهيات لا بد منها، مجلة الفرقان، ع73، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2014ص 27

[16] نفسه ص 27-28